أثر القرآن في تغيير الإنسان

الأستاذ/ مسعد عرفة

لما نزل القرآن العظيم تغيَّر العرب، وأُعيد بناء شخصياتهم وفق المنهج الرباني، وتغيروا بآيات الله. وهذه المقالة تكشف

طرقًا من أثر القرآن في تغييرهم، وتسلّط الضوء على عدة عوامل من عوامل تأثير القرآن في نفوسهم وفي نفوس الناس.

منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا؛ وقبل أن ينعم الله -عزّ وجلّ- على البشرية بأعظم نعمة، وهي: إنزال القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين -صلى الله عليه وسلم-، ما كان العرب إلا شَراذِمَ متفرقة وقبائلَ متناحرة، ثم بين عشية وضحاها صاروا إخوة متحابّين، ورفاقًا متآلفين، يفدي بعضهم بعضًا بالغالي والثمين!

وقد نصّ الله تعالى في القرآن على هذه النعمة، فقال: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: 103].

كانوا يتقاتلون على الناقة والشاة، ثم ما لبثوا أن آثر بعضهم بعضًا على نفسه؛ ونزل فيهم قول الله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[الحشر: 9].

لم يكن لأحدهم ولاءٌ إلا لقبيلته التي ينصرها في الباطل قبل الحقّ، ولم يكن في وسع أحدهم إلا الاستجابة لصراخ أخيه في القبيلة، بلا برهان ولا بينة على قوله؛ كما قال الواصفُ لهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانًا[1]

ثم ما كان منهم بعد الإسلام إلا أن صار أحدهم ينصر الحقّ ولو كان مع غير

قبيلته، امتثالا لأمر الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ}[النساء: 135].

وكانت العصبية القبلية دينهم، فإذا بهم يُجاهِد أحدُهم مع إخوانه في الإسلام ولو كانوا من غير قبيلته؛ بل ولو لم يكونوا من العرب بالأساس!

فكان المسلم الأوسي يقاتل بجوار المسلم الخزرجي، بجوار المسلم القرشي، بجوار المسلم الحبشي، بجوار المسلم الرومي، بجوار المسلم الفارسي، كلهم ذابوا في بوتقة واحدة، يقاتلون يدًا واحدة حتى لو كان عدوهم هو قبيلة أحدهم.

كانوا يتفاضلون فيما بينهم بالمال والجاه وكثرة العدد والولد وجمال الْخِلْقَة وقوة البدن، ثم أصبحت التقوى هي معيار التفضيل، والذي لا يعلمه إلا الله، بعد أن سمعوا كلام ربهم: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات: 13].

كانوا ينتقصون ويكرهون النساء والبنات، حالهم في ذلك كما أخبر الله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[النحل: 58- 59].

ويحتقرونهن ولا يعتبرونهن شيئًا؛ ثم أكرموهن وورثوهنَّ، وأعلوا قدرهن؛ كيف لا وقد فرض الله لهن نصيبًا في آيات المواريث، {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا

مَفْرُوضًا}[النساء: 7].

كان سعي أحدهم وكَدُّهُ طول عمره في تحصيل أكبر قدر من المال والإبل والغنم والعلوّ في الأرض، ثم أصبح منتهى أمل أحدهم أن يُطْعَن في سبيل الله طعنة تنقله إلى منازل الشهداء؛ {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}[الأحزاب: 23].

كان ليلهم مع شرب الخمور وتمايل الغانيات وفعل المنكرات، فصاروا لا يبيتون إلا وقد صفّوا أقدامهم بين يدي الله -عزّ وجلّ-، يناجونه في جوف الليل، وقد تركوا الغانيات والخمور، وقد كانوا يفرطون في حياتهم التي بين جنوبهم ولا يفرطون فيها!

كانوا لا يعتبرون العبيد شيئًا، وكان العبد أهون على سيده من شراك نعله؛ ثم أصبح بعد الإسلام أخًا مساويًا له في الحرمة، بل قد يفوقه ويعلوه إن كان أكثر منه في التقوى والإيمان؛ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}[الحجرات: 13].

والسؤال الآن: ما سبب كلّ هذه التغيرات والتحولات وغيرها مما يحيّر الألباب؟

والإجابة على ذلك بشيء واحد: إنه أثر القرآن في تغيير الإنسان.

هذا القرآن الذي أعاد بناء شخصياتهم وفقًا للمنهج الرباني، ولا يراد بذلك مجرد الحفظ والترديد لآيات القرآن؛ وإنما القصد أن يكون القرآن منهج حياة، وخط سير

لا يحيد عنه الإنسان.

تأملوا هذا المنهج الرباني التربوي، الذي جاء تفصيله في حديث جُنْدُبِ بن عبد الله بن سفيان البَجَلِيِّ العَلَقِيِّ -رضي الله عنه-؛ قال: «كُنَّا فِتْيَانًا حَزَاوِرَةً [جمع حَزَوَّر، وهو الغلام لم يبلغ وقد قارب] مَعَ نَبِيِّنَا -صلى الله عليه وسلم-، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا؛ وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»[2].

فتأمل قول الصحابي الجليل: »فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ»، وتدبر كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- علّمهم الإيمان قبل القرآن، فلما تعلموا القرآن ازدادوا به إيمانًا.

ثم هو -رضي الله عنه- يوضح المنهج المقابل، فيقول: «وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»؛ فحريٌّ بنا أن نجعل هذا الحديث مركزًا للمنهج التربوي الذي نأخذ به أنفسنا وأبناءنا وبناتنا وأهلينا.

ولم لا؟! أليس هو المنهج الرباني والأسلوب النبوي في التربية، الذي تكلم به من لا ينطق عن الهوى -صلى الله عليه وسلم-؟! وما فائدة أن يكون الإنسان قادرًا على ترديد القرآن كلّه من الفاتحة إلى سورة الناس، ولكنه في الواقع يسير عكس المنهج التربوي للقرآن تمامًا؟!

وحال النبي -صلى الله عليه وسلم-خير مثال يُحتذى به؛ إذ كان -صلى الله عليه وسلم- يهتمُّ بالجانب العملي، ويقدّم الناحية التطبيقية؛ فأم المؤمنين عائشة -رضي

الله عنها- حينما سئلت عن خُلُق النبي -صلى الله عليه وسلم-، لم تجد سوى أن تقول: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- كَانَ الْقُرْآن»[3].

فالقرآن في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-كان واقعًا عمليًا؛ فمثلا لمَّا نزل قول الله تعالى: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[النصر: 3]، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يمتثل ذلك[4]، كما أخبرت عائشة -رضي الله عنها-: «يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي)؛ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»[5].

وهكذا كان جيل الصحابة -رضي الله عنهم-؛ كما جاء وصفه في الأثر الرائع عن أبي عبد الرحمن، قال: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَشْرَ آيَاتٍ، وَلا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ؛ فَإِنَّا عُلِّمْنَا الْعَمَلَ وَالْعِلْمَ»[6].

فتأملوا هذا الفرق بين هذا المنهج وبين ما وضحه الصحابيّ جُنْدُبِ بن عبد الله بن سفيان -رضي الله عنه- مِن حال مَنْ كان بعدهم، قال: «وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ».

فهناك فارق بين المنهجين:

المنهج الأول: وهو القائم على الاهتمام بالفهم والعمل.

المنهج الثاني: وهو القائم على الاهتمام بالحفظ والترديد، حتى إن كان بغير العمل، أو حتى بغير فهم!

ولا ريب أنَّ المؤمنين المتقين يتبعون المنهج الأول؛ ولا علاقة لهم بمن يرددون القرآن ولا يفهمونه، ومن ثمَّ لا يتأثرون به، هؤلاء الذين ذمّهم الله تعالى بجميع أصنافهم؛ فقال: {فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}[النساء: 78] ،وقال -سبحانه وتعالى-: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد: 24] ،وقال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}[التوبة: 124].

العامل الأول من عوامل تأثير القرآن: التدرج:

وذلك كما جاء الخبر في الحديث عن يوسف بن ماهك؛ قال: إنِّي عند عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها-، إذ جاءها عراقيٌّ، فقال: أيُّ الكَفَنِ خير؟ قالت: «وَيْحَكَ، وما يضرُّك؟!»، قال: يا أم المؤمنين، أرِيني مصحفك؟ قالت: «لِمَ»؟ قال: لَعَلِّي أُوَلِّفُ القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غيرَ مُؤَلَّفٍ. قالت: «وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟! إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ؛ لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا؛ لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ}[القمر: 46]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ»، قال: فأخْرَجَتْ له المصحف، فأمْلَتْ عليه آيَ السُّوَرِ[7].

فلنتأمل هذا الأثر العظيم عن أمِّنا عائشة -رضي الله عنها-؛ إذ فيه بيان المنهج الرباني القائم على التدرّج في التأثّر بالقرآن؛ فهذا الرجل العراقي جُلُّ هَمّهِ في ترتيب المصحف؛ فقالت عائشة -رضي الله عنها-: «وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟!»؛ لأن المهم هو ما نستفيده من الآية من أحكام؛ لنعبد الله تعالى على بصيرة، ولنعمل بها في حياتنا، كما أمر الله خالقنا.

فكان بناءُ شخصية الإنسان المسلم في المرحلة الأولى من الإسلام متعلّقًا بجانب العقيدة، والرقائق، والحديث عن الجنة والنار، والساعة، والصراط، ومشاهد يوم القيامة، وثواب المتقين، وعقوبة المجرمين؛ حتى إذا ترسخت العقيدة في القلوب، وصارت الجنة والنار كأنهما رأي العين، أنزل الله تعالى آيات الأحكام، وبيَّن فيها الحلال والحرام.

وفي عصرنا الحديث يوجد مَن يسلكون سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ولكن على غير هذا المنهج، فيبدؤون الناس بالأمر والنهي، والحلال والحرام، قبل أن تترسخ خشية الله -عزّ وجلّ- في القلوب، وقبل أن تنغرس في صدورهم الرهبة من النار، والرغبة في الجنة، فتكون النتيجة كما أخبرت أمنا عائشة -رضي الله عنها-: «لَا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا،... لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا».

ومن هنا ننتقل إلى مجال آخر من مجالات التدرج؛ فالتدرج في القرآن لم يكن قاصرًا على الأحكام الشرعية؛ بل كان القرآن أيضًا منهجًا ربَّانيًّا متدرجًا لإعداد النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- للرسالة.

قال الفيروزابادي: «اتَّفقوا على أنَّ أوّل السُّور المكّية {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

خَلَقَ}[العلق: 1] ،ثمَّ {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}[القلم: 1]، ثمَّ سورة المزمِّل، ثمَّ سورة المدَّثِّر،...»[8].

فقبل أن يُنَزِّلَ اللهُ تعالى على النبيِّ -صلى الله عليه وسلم- قوله: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ}[المدثر: 2-1]، كانت التهيئة والإعداد لتحمل هذه المسؤولية الكبيرة، فقال -سبحانه وتعالى-:{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}[المزمل: 1- 5].

وهذه لفتة رائقة تؤكد أنّ الهدف الأسمى من قيام الليل هو ترتيل القرآن وتدبّر معانيه، ومن ثم تتم تربية قائم الليل، وتأهيله لحمل أعباء الدعوة، وليعينه القرآن على تحمل كلّ أذى في سبيل الدعوة؛ كما قال -سبحانه وتعالى-: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}[المزمل: 10]، فأكد -سبحانه وتعالى- في الآية الكريمة أن القرآن مُعينٌ لمن يقوم به الليل على تحمّل الأذى في سبيل الدعوة.

العامل الثاني من عوامل التأثير :الترتيل:

إذ ليس القصد تحقيق أكبر عدد من الختمات، وذلك أن الأمر من الله -سبحانه وتعالى- جاء بترتيل القرآن، فقال -سبحانه وتعالى-: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}[المزمل: 4]؛ وهكذا كانت قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

واتبعه الصحابة -رضي الله عنهم-؛ فقد كان ترتيل القرآن سببًا لحرمان أبي موسى -رضي الله عنه- والأشعريين من النوم؛ وذلك أن القرآن متى دخلت محبته القلب

خرجت منه كلّ محبة تصرفه عن كلام ربّ العالمين، وأول أثر للقرآن على صاحبه أنه يحرمه النوم الطويل.

جاء عن أبي موسى -رضي الله عنه-؛ قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفْقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَ مَنَازِلَهُمْ حِينَ نَزَلُوا بِالنَّهَارِ...)[9].

فأيُّ شرفٍ لهذه الشخصيات الإيمانية، هؤلاء الذين تُعْرَفُ بيوتهم، وتُميّزُ من بين البيوت، كما يميّز البشر النجوم المضيئة في السماء المظلمة، وما ذلك إلا بالقرآن؛ ليس كما في عصرنا الآن الذي فيه بيوت تُعرفُ بسماع المنكرات.

وقد عاب الصحابة -رضي الله عنهم- مَنْ اهتمَ بكثرة القراءة وعدد الختمات على حساب ترتيل القرآن؛ حيث جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، فقال: قرأتُ المُفَصَّلَ الليلة في ركعةٍ. فقال عبد الله -رضي الله عنه-: «هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ، إِنَّ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ، إِنِّي لَأَعْلَمُ النَّظَائِرَ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ»[10].

لقد ظنّ الرجل أن ابن مسعود -رضي الله عنه- سيفرح ويُثني عليه عندما يعلم بأنه يقرأ المفصل كلّه في ركعة واحدة! ولكن المفاجأة كانت في شدة إنكار ابن مسعود -رضي الله عنه- عليه؛ إذ أعلمه أن العبرة ليست بكثرة الآيات؛ بل بترتيلها، وتدبر معانيها، وفهم مراميها.

وهذا ينقلنا إلى العامل الثالث :التدبر :

إنّ تأثر الإنسان بالقرآن لا يمكن أن يتم حقيقة إلا بتطبيق القرآن، والتطبيق الصحيح للقرآن لا يتحقق إلا بعد فهم آيات القرآن، قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[ص: 29]؛ فمن أخذ القرآن بهذا المأخذ الرباني، وتدبَّر آيات القرآن، فعساه أن يحقق ذلك الأثر الإلهي للقرآن.

تأملوا أثر القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم-:

بكاؤه -صلى الله عليه وسلم- عند سماع القرآن، وتأثره بمعانيه؛ كما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-؛ قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-: (اقْرَأْ عَلَيَّ). قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: (فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا}[النساء: 41]؛ قَالَ: (أَمْسِكْ). فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[11].

ولم يكن أثر القرآن على النبي -صلى الله عليه وسلم- مقتصرًا على دموع العين؛ بل كان يؤثر في أعماله -صلى الله عليه وسلم-، فالقرآن كان يرفع من درجة السخاء النبوي؛ فعن ابن عباس-رضي الله عنه-؛ قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[12] .

فانظروا ذلك الأثر العملي لمدارسة القرآن، وكيف كان الأثر في مضاعفة الاستعداد الجبلّي للنبي -صلى الله عليه وسلم- للنفقة؛ فهكذا تكون الثمرة الحقيقية لتدبر القرآن برفع مستوى إيمان العبد، ومضاعفة أعماله الصالحة.

وقد يقول قائل: ولكن هذا الأثر للقرآن يحدث للطائعين المتقين، ولكن أين العصاة من ذلك؟!

تأمل هذه القصة: سُئِل ابن المبارك: عن ابتداء طلبه العلم؛ فقال: «كنت شابًا أشرب النبيذ، وأحبّ الغناء، وأطرب بتلك الخبائث، فدعوتُ إخوانًا حين طاب التفاح وغيره إلى بستانٍ لي، فأكلنا وشربنا حتى ذهب بنا السُّكْر، فانتبهت آخر السَّحر فأخذت العود أعبث به وأنشد:

ألم يأن لي منك أن ترحما ونعصي العواذل واللُّوَمَا

فإذا هو لا يجيبني إلى ما أريد؛ فلما تكررت عليه بذلك، وإذا هو ينطق كما ينطق الإنسان: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}[الحديد: 16]؛ قلتُ: بلى، يا رب! فكسرت العود، ومزقت ظروف النبيذ، وجاءت التوبة بفضل الله -سبحانه وتعالى- بحقائقها، وأقبلت على العلم والعبادة»[13].

وقد أثّر القرآن في عامة المشركين؛ كما جاء ذلك في الحديث عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-؛ أنها قالت: «لَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، فردّه ابنُ الدَّغِنَةِ وأجاره من المشركين؛ فقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، فَلْيُصَلِّ، وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ، فَإِنَّا

قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. فقَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ، وَلاَ القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لِأَبِي بَكْرٍ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ، فَيَتَقَصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ [أي: يزدحمون عليه ليسمعوه]، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلا بَكَّاءً، لاَ يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ. فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ، فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلاَةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ، فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لِأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلاَنَ،...»[14] .

فانظر كيف كان القرآن يؤثر في عامة المشركين حتى النساء والأطفال!

وأخيرًا... أفلا ننتبه إلى المعاتبة الربانية الحانية التي كانت سببًا في توبة الكثيرين من الغافلين الذين لم تقض الغفلة على بقية من خير في قلوبهم؟!

ألم يأن لنا أن نستحيي من المعاتبة الربانية في قوله -سبحانه وتعالى-: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}[الحديد: 16]؛ أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، فتلين عند سماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتطيعه!

فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: «إنّ الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، فقال-سبحانه وتعالى-: {أَلَمْ

يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}»[15].

---

[1] عيون الأخبار (1/ 285).

[2] رواه ابن ماجه في افتتاح كتابه (ح: 61)، وصحح إسناده البوصيري في مصباح الزجاجة (1/ 12).

[3] رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (ح: 746).

[4] انظر: فتح الباري لابن رجب (7/ 272).

[5] رواه البخاري في الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود (ح: 817)، ومسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (ح: 484).

[6] رواه ابن أبي شيبة (ح: 29929).

[7] رواه البخاري في فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (ح: 4993).

[8] بصائر ذوي التمييز (1/ 98).

[9]رواه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (ح: 4232)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل الأشعريين (ح: 2499).

[10] رواه البخاري في الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة (ح: 775)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة، واجتناب الهذّ، وهو الإفراط في السرعة، وإباحة سورتين فأكثر في ركعة (ح: 822).

[11] رواه البخاري في تفسير القرآن، باب {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا}، (ح: 4583)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر (ح: 800).

[12] رواه البخاري في كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (ح: 6)، ومسلم في الفضائل، باب كان النبي -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (ح: 2308).

[13] ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض (3/ 43).

[14] رواه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه إلى المدينة (ح: 3905).

[15] رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (18825).